

"طوّشوني"

الحيز العامّ الفلسطينيّ والمرأة بين الانكماش والانتعاش

ميساء ارشيد*

يتناول هذا المقال الحيز العامّ من منظور العلاقات الجندريّة وتراثيّتها، وسيتطرق على نحو خاصّ إلى دخول النساء إلى الحيز العامّ عبر أجسادهنّ، أي عبر استخدام أجسادهنّ وسيلةً للتعبير ولا سيّما عند الاحتجاج، متأثرات بذلك من التيّار النسويّ الراديكاليّ ومركزيّة الجسد فيه. يقوم المقال بذلك من خلال عرض وتحليل تجربة مجموعة من الناشطات الفلسطينيات اللواتي استخدمن أجسادهنّ للاحتجاج النسويّ عن طريق فلاش-موب (التجمّع المفاجئ) للرقص.

ان النساء الفلسطينيات باستعمالهنّ لأجسادهنّ في النضال لم يخطين بعيدا عما خطاه الكثيرون قبلهنّ في النضال الفلسطينيّ، كما وان الحالة الفلسطينية ليست بحالة استثنائية، فقد تناولت كثير من الادبيات الجسد المقاوم متمركزة حول استعمال المناضل لجسده من خلال الحرب او السجن من خلال الاضراب في الأسر. ولكنني أصبو هنا الى تسليط الضوء على الجسد النسوي وحراكه في الحيز العام، موسعة رقعة الضوء حول الجسد النسائي الفلسطينيّ الراقص، حين يكون فعّالاً مشاركاً في هندسة الحيز لرفع قضاياها.

أبرز استعمالات الجسد الفلسطينيّ المشروعة اجتماعياً تظهر في مقاومة الاستعمار، وعلى رأسها الكفاح المسلّح واحتجاج الأسرى في السجون الإسرائيليّة والإضراب عن الطعام أي تهزيل الجسد كآخر مرحلة يمرّ بها الإنسان قبيل الموت أو ما يسمّى بالموت البطيء. وأيضاً الاستشهاد العلنيّ والمباشر كفعل احتجاجيّ تحرريّ من الاستعمار. ضمن نفس السياق لم تبخل دولة إسرائيل في التحكم بالجسد الفلسطينيّ من أجل ممارسة منظوماتها القمعيّة مثل تعذيب المعتقلين وانعدام العلاج الطبي للأسرى والتفتيش العاري للفلسطينيّ/ه على الحواجز واورها احتجاز جثامين الشهداء كعقاب فرديّ وجماعيّ للفلسطينيّ حيّاً كان أم ميتاً. هنا يظهر الجسد الذي تُنقش على جلده وزمنه وحيّزه الممارسات الاستعماريّة الإسرائيليّة، وفي الوقت ذاته، تظهر المقاومة الفلسطينيّة الجسديّة لهذه الممارسات. تقول الباحثة سهاد ناشف في السياق الاستعماريّ والتحرريّ إنّ "الممارسات على الجسد هي تجلّ للانخراط المباشر للجسد في الحقل السياسيّ كي يكون حيزاً لنقش السيادة واستعادتها. وبهذا يشكّل الجسد حلبة للاشتباكات ولحلّ النزاعات، ووسيلة لفرض السيادة على الجسد وعلى الأرض".¹

لم تقتصر إعادة تشكيل الجسد على المقموعين من أبناء الأرض، فزحفت إلى تكوين جسد المقاوم المستعمر (ومحلّيّاً هو الجنديّ الإسرائيليّ) في عملية موجّهة لبنائه، متمثلاً آلة حربيّة من فولاذ، وهذا يندرج تفصيلاً في بحث لليمور سمميان ديرش التي تُظهر، بعد سلسلة مقابلات مع مقاتلي فيلق "دوفدوفانيم" (الكرز) في الجيش الإسرائيليّ،² أنّ عملية التدريب العسكريّ تعتمد على استعمال الوحشيّة متمثّلة بالضرب المبرح الموجّه إلى جسد المقاوم كوسيلة لتفكيكه حتّى يعاد تكوينه من جديد وفق معايير المنظومة العسكريّة وتحويله إلى جسد يفي بأهدافها الحربيّة. بهذا يمرّ الجسد في عملية ترويض بعد أن ذوّت الأم وأحكم قبضته عليه ضمن عملية تدريب

1. ظاهر ناشف، سهاد، 2016. اعتقال الموت الفلسطينيّ. مجلّة الدراسات الفلسطينية: 107(19-36).
2. وهم من يعدّ تأهيلهم عسكرياً للقيام بمهامّ اندساستيّة؛ ويُعرفون باسم "المستعربين".

موجّهة نحوها الأمل والخوف إلى متعة، ليعزز من خلالها سيطرة المقاتل على جسده ومشاعره والسيطرة الداخلية على نفسه، مما يؤدي بالضرورة إلى تعزيز سيطرته على العوامل الخارجية في الحيز العام، ورفع ثقته بنفسه من خلال التدرّب على السيطرة.³

أما في الأدبيات النسوية فقد نال الجسد، على مستوى العالم، اهتماماً خاصاً، وما زال محطّ العديد من الدراسات والأبحاث التي تطمح إلى فحص السياسات التي تشكّل هويته والعوامل التي تؤثر عليها باختلاف الزمان والمكان. وقد شهدنا في محطة مبكرة نسبياً في الحراك النسوي الغربي الاهتمام بالجسد كحلبة مركزية للنضال، وترسخ في ذهن العالم احتجاج النساء/النسويات الأمريكيات سنة 1968 على مسابقة ملكة جمال أميركا، حين قمن علانية برمي كل ما يمثل اضطهادهنّ من حمّلات الصدور ومساحيق التجميل والأحذية ذات الكعب العالي إلى حاوية كُتبت عليها "Freedom trash can" وُضعت أمام مبنى المسابقة. وعلى العكس من السائد، لم تحرق المحتجّات محتويات الحاوية، وهي ظاهرة تطوّرت لاحقاً إلى تصعيد نضاليّ. باستمرار الأحداث على السلم الزمنيّ، برزت في السنوات الأخيرة حركة "فيمين" الاحتجاجية، ذات الأصول الأوكرانية، والتي اتخذت عري الجسد النسائيّ الكامل أو النصفيّ كوسيلة للاحتجاج في الحيز العام، ودون الخوض في النقاش العام حولها بين داعم ومعارض، نجحت الحركة في ضمّ نساء من العالم العربيّ إلى صفوفها مثل علياء المهدي المصرية وأخرى مغربية. الاحتجاج بواسطة العري النصفيّ تعود بذوره إلى نضال النساء السوداوات "العبدات" حين ألزمن بتأدية دور مرضعات للأطفال البيض، واحتجاجاً على استعبادهنّ كشفنّ عن صدورهنّ في الكنيسة (أي مارسن العري الجزئيّ أو النصفيّ) ليذكرن الأبيض القامع أنّهنّ مصدر حياته.⁴

في فلسطين المحتلة، جسّدنا النسائيّ هو كذلك يقبع تحت احتلالين: الاستعماريّ الإسرائيليّ، والأبويّ الذكوريّ تحت غطاء الدين والقوانين الاجتماعية وما يلقفه من مصادر تحديد حزيّة المرأة والإنسان؛ وفي ما يلي سأناقش الأخير. ممّا لا شكّ فيه أنّ المرأة تُحاكم اجتماعياً وأخلاقياً بناءً على جسدها؛ فمن ممّا لم تتعرّع على خفض صوتها في الحيز العام، وإغلاق رجليها عند الجلوس، والحرص ألاّ يتمرّد صدرها على حدود بلوزتها، وألاّ ترتفع تنوّرتها فوق خطّي ركبتيها، وألاّ تتركب الدراجة الهوائية خوفاً "على اللي تحت"؟! كذلك ألقيت عليها مهمّة تحنيط بكارتها (أو ترقيعها إذا لزم الأمر). أما مصادر التحريم، فهي تختلف وتتحدّد وفق المكان الجغرافيّ الخاصّ بالبلد والحّي، والديانة، والعائلة، وحالتها الاجتماعية (مطلّقة/منطلّقة؛ أرملة؛ متزوّجة).

سارت المرأة الفلسطينية في مسيرة النضال الوطنيّ والاجتماعيّ تتحدّى نفسها كلّ مرّة مجدّداً، حتّى عندما دفع بها المجتمع إلى الخلف وتراكمت حولها العوائق المضاعفة، فقد شهدنا الحراك السياسيّ للمرأة الفلسطينية حين شكّقت طريقها في الحيز العامّ وبين الرجال مثل المظاهرات، ويعلق بالذاكرة الحديثة حضور المرأة في الاحتجاجات ضدّ مخطّط برافر، وقبلها في الانتفاضة الأولى، وتقدّمها القيادات السياسية حيث اعتلن المناصب الريادية ممّا يلاقي تقبّلاً جماهيرياً محدوداً. مقابل ذلك، إنّ مشاركة المرأة الفعّالة في الرياضة تلاقى ردعاً عنيفاً أحياناً وأقصاه التهديد بالقتل، كما حصل مع العداءة حنين راضي من الطيرة عندما حاولت تنظيم ماراثون رياضيّ بلديّ لنساء بلدها. لتوضيح المشكلة أستذكر تصريح أحد الشيوخ للإعلام المحليّ حين قال معلّقاً على الماراثون: "اقتحمت على المنظمين أن يكون سباق النساء داخل الملعب البلديّ بدلاً من الشارع، لكن لم نر أيّ تجاوب. نرفض أن تشارك نساؤنا في مثل هذه السباقات، كونها لا تتلاءم مع ديننا الحنيف. وأنا شخصياً مصرّ على رأيي، ولا أرى فيه أيّ خطأ، بل هو يصبّ في مصلحة النساء والفتيات".

ما يقوله الشيخ هو تسويغ لفكر اجتماعيّ ضربت جذوره عميقاً فينا، بموجبه المرأة الجميلة والعفيفة لا ترضى، لا يتصاعد صدرها ويهبط، ولا يتطاير شعرها عفوياً متمرّداً على حدود مساحيق التجميل وإن أرادت ذلك لنفسها فلتذهب إداً إلى الغرف المغلقة والخاصّة، هناك حيث تقتصر رؤيتها على قلّة قليلة. وبهذا يجري تطهير الحيز العامّ من النساء وخلق مجموعة الأضداد، وهنّ "العفيفات المطيعات" لقوانين ربّ الشارع، ويضيق الحيز العامّ أمامهنّ ليصبح حصرياً على الرجال الذين يهندسونه بما يتناسب مع مصالحهم وراحتهم، حتّى لو اقتضت التبول الحرّ في هذا الحيز.

³ سميمان- درش، ليمور. 2004. العنف، السيطرة والمتعة: الإنتاج الجسديّ المتجدّد- قضايا في تأهيل جنود وحدة دوفوفان. القدس: مركز شين الجامعة العبرية.

⁴ Yalom, Marilyn. 1997. *A History Of the Breast*. New York: Knopf.

تضيق بؤابة الدخول للحيّز العامّ الفلسطينيّ كثيراً أمام المرأة، ليقصر على عبورها به للتنقل من حيّز خاصّ إلى آخر، ما هو إلاّ استدامة الهيمنة الذكوريّة على مورد جماعيّ وشريانٍ مركزيّ لممارسة المرأة الرياضيّة والفنّ والعمل والحيّرة لفعل ما ترغب به دون وضع اليد عليهم من قبل من يدعي ملكيّة خاصّة على الحيّز العامّ، ويسطو عليه ولا يراها صاحبة حقّ كما هو، حتّى يبدو السؤال: لماذا لا يقوم الشيخ ورجالته هم بالعدو داخل الملعب بحجمه المحدود مهمّما اتّسع، ويترك الشارع للنساء؟ لأنّه يغيّر موازين القوى ويقلب السحر على الساحر.

تحديّ قوانين الملكيّة للحيّز العامّ برز عن طريق نشاط احتجاجيّ فريد، قامت به مجموعة من النساء ضمن المنتدى النسويّ الفلسطينيّ مستخدمات أجسادهنّ من خلال الرقص في الساحة العامّة، هو رافعة في صميم النضال النسويّ المحليّ تبتغي رفع الوعي إلى التخلّص من العنف ضدّ النساء كمهمّة وطنيّة نسويّة في سلّم الأولويّات الاجتماعيّ والسياسيّ.⁵ اختير الرقص بواسطة "فلاش-موب"، وهو الرقص الاحتجاجيّ الجماعيّ تقوم به مجموعة من الناس (في هذه الحالة نساء) على نحو مفاجئ في الحيّز العامّ، كإحدى الوسائل التي من خلالها في الإمكان مخاطبة الجمهور وزعزعة ثوابته الحيّريّة على نحو مباشر وعلنيّ، بغية لفت النظر إلى قضية مجتمعيّة حارقة بواسطة تحريك الجسد المستهدف وجعله فعّالاً مقاوماً مستلهماً ذلك من التاريخ الفلسطينيّ في الميادين، كما أسلفت في ما سبق. من خلال الرقص تمكّننا من خلق بيئة تضامنيّة واسعة جمعت نساء من مختلف أنحاء البلاد وجعلنا الجسد، وهو نفسه المعنّف، فعّالاً محتجاً على العنف الموجّه ضدّه. الرقص يكسر الصمت حول هذه الآفة الاجتماعيّة؛ إذ يخرج الجسد النسائيّ المعنّف والجمعيّ في كامل أوثنته إلى ساحة المدينة ولا يبقى وحيداً مستعيباً يتلقّى الضربات داخل الغرف المغلقة ويلطّح بمساحيق التجميل عند خروجه للحيّز العامّ ليخفي الكدمات. لا أبالغ إذا قلت إنّنا شهدنا نساء يصنعن التاريخ.

اختيار الرقص لم يكن عبثياً. جدليّة الجسد الأنثويّ كحيّز لنقش الهيمنة الذكوريّة والتحرّر منها رافقت عمليّة التخطيط والتنظيم. هذا الجسد الشرقيّ الراقص والمحتجّ على أنغام عربيّة تشمل هرّ الكتف والصدر للفنانة اللبنانية تانيا صالح حين تقول "بيكفي" في أغنية "طوشتوني"، جاء ليفرض نفسه في الحيّز العامّ بحرّيّة الحركة، ويتخلّص من الصورة النمطيّة المسيطرة بناء على الأفلام المصريّة التي بثّتها القنوات الإسرائيليّة حيث يكون الرقص الشرقيّ وسيلة لإثارة الرجل جنسياً.⁶

بالتوازي مع الجسد المحرّر والراقص في وسط المدينة، تشكّلت تحديّات نفسيّة عند بعض المشاركات اللواتي قرّرن العدول عن الفكرة والتنازل عن التجربة، إمّا خجلاً أو خوفاً من ردود فعل الرجال من أقربائهنّ أو خوفاً من اتّهامهنّ بالجنون لمجرد التفكير في الرقص في وسط المدينة، وهذا يستدعي بحثاً كاملاً يلامس قرار النساء بالتنازل عن تشكيل الحيّز. من المعروف أنّ آليات تطهير الحيّز العامّ من النساء تعتمد على الرقابة العائليّة والاجتماعيّة والعقاب؛ حيث يبيّت جوّ من الإرهاب الصامت غالباً وخوف من العواقب الاجتماعيّة لمن تجرؤ على القيام بمثل هذا الفعل في كلّ ما يمثّله من استعادة ملكيّة للحيّز بشروطها كصاحبة حقّ ملكيّة فيه لا كدخيلة عليه. لذا، فإنّ أهميّة النشاط لا تكمن فقط في كونه يعيد صياغة العلاقة بين أجساد النساء والحيّز العامّ، وإمّا كذلك في أنّه يعيد صياغة العلاقة بين المشاركات وأنفسهنّ بصورة تحدّ يعطي معنّى مميّزاً للاحتجاج النسويّ الذي يستقي مصادره من مشاعر الكبت والغضب والخوف.

إنّ انكماش الحيّز العامّ الفلسطينيّ الحديث ليلفظ أجساد النساء عندما يركضن أو يرقصن، مقابل اتّساعه فاتحاً أذرعهنّ لهنّ أثناء الصدام مع الدولة وأذرعها ليكّنّ في الصفوف الأولى لكبح العنف بأجسادهنّ (نكاية بالعنف الموجّه ضدّه من أفراد العائلة)، هذا الانكماش يعكس فصلاً نراه مستنكرًا بين النضال القوميّ والنضال النسويّ، فصلاً يفاضل بين النضالين بناء على مصدر العنف، حيث يندرج الأوّل ضمن إجماع اجتماعيّ، بينما يتمرّد الثاني عليه. الجسد النسائيّ كحلبة للاشتباكات ولحلّ النزاعات في الحيّزين الخاصّ

⁵ كاتبة المقال هي إحدى المبادرات لهذا النشاط الذي عقد في الثامن من اذار لعام 2014.. في الساحة الواقعة بين عين العذراء وكنيسة البشارة في مدينة الناصرة.

⁶ علماً أنّ هناك أبحاث تفيد أنّ الرقصات الشرقيّات يشرن إلى الرقص كأداة تحرّرية من النظرة النمطيّة الذكوريّة لأجسادهنّ، ووسيلة لإعادة سيطرتهنّ عليه. انظر/ي: "Andrea Deagon "Feminism and Belly Dance"

(جرت زيارة الموقع في 24 تشرين الثاني عام 2016). <http://people.uncw.edu/deagona/raqs/feminism.htm>

والعالم هو أرض خصبة يبين بها الغث من السمين، وهو النفاق النضالي الذي تعمل النسوية الفلسطينية على الإشارة إليه ومن ثمّ تحدّيه حتّى التخلّص منه.

- ميساء ارشيد محامية وناشطة اجتماعية، حاصلة على اللقب الثاني في دراسات الجنوسة.